

الحمولة الهوياتية لنص "مهجرون ولا عودة" لـ "زهوروني" في منهاج اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم المتوسط

The identity of the text "Displaced with No Return" by "Z'hour Ounissi" in the Arabic Language Curriculum for the Fourth Year in Middle School

شفيقة بن الشارف*

جامعة محمد خيضر - بسكرة-
(الجزائر)

chafika.bencharef@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2025/09/29

تاريخ القبول: 2025/09/20

تاريخ الاستلام: 2025/06/26

ملخص:

إنَّ التَّوجُّه الذي شهدته سلسلة الإصلاحات التربوية لمناهج التعليم الجزائرية، يسعى إلى بناء شخصية المتعلِّم الجزائري على اعتبارات تفرضها توجَّهات الدولة وفي مقدِّمتها تعزيز الانتماء الوطني وروح المواطنة، والذي تتطافر له مختلف الآليات لتجسيده من خلال الكتب المدرسية لمختلف المواد التعليمية، إذ لم يعد حكرًا على مناهج مادة التاريخ أو التربية المدنية، بل اتسع ليشمل تعليمية اللغات وفي مقدِّمتها اللغة العربية، كونها أهمُّ مقوِّمات الهوية الوطنية، حيث تسخَّر النصوص القرائية لبلورة مفهوم الذاكرة الوطنية ونقلها للأجيال دونما زيف أو تشويه، ولبلوغ غايات البحث انصبَّ اهتمامنا بكتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم المتوسط، الذي اخترنا منه نص "مهجرون ولا عودة" الذي يؤرِّخ للنموذج الإنساني الحرّ، ويرسم صورة الجزائري الذي انتقل قسرا للعيش في "كاليدونيا"، ليدرك المتعلِّم بمأساة وتضحيات السلف في سبيل الحرية.

الكلمات المفتاحية: الذاكرة الوطنية؛ الهوية الوطنية؛ زهور ونيسي؛ كاليدونيا.

Abstract:

The trend witnessed by the series of educational reforms of Algerian education curricula seeks to refine the personality of the Algerian individual according to the foundations of the state, by strengthening national belonging and instilling the spirit of citizenship in learners. Various mechanisms are combined to embody it through schoolbooks in all educational subjects. It is no longer limited to history or civic education curricula, but has expanded to include didactics, especially that of Arabic language, as it is the most important component of national identity. The reading texts are used to elaborate the concept of national memory and transmit it to generations without falsification or distortion.

To achieve the goals of the research, our interest was focused on the Arabic language book for the fourth year in middle school. The text selected "Displaced with No Return" chronicles the free human model.

Keywords: National Memory; National Identity; Zahour Ounissi; Caledonia.

1. مقدمة:

الثورة الجزائرية نموذج فذّ للإنسان الحرّ، إذ رسمت مبدئاً شريفاً وطريقاً ثابتاً للحريّة، وألهمت الشعوب المستضعفة في اتخاذ الكفاح والنّضال سبيلاً لاسترجاع الأرض والعرض، والتحرّر من قبضة المستعمر مهما كانت طبيعته، ولغرس هذه الأسس والمبادئ، أخذت المناهج التعليمية في مختلف الأطوار على عاتقها ترسيخ المفاهيم المتعلّقة بالثّورة المظفّرة، وغرس قيم الوطنية ونقلها للنّاشئة بإدراجها ضمن محتويات الموادّ التعليمية وفي مقدّماتها "منهاج اللغة العربية"، من خلال تسخير مجموعة من الآليات وفي مقدّماتها النّصوص الأدبية.

إنّ صقل شخصية المتعلّم على القيم والثوابت الوطنية مسؤولية تأخذها منهاج اللغة العربية بعين الاعتبار، وتسخر لها النّصوص القرائية المناسبة (نثراً وشعراً) لنقلها للمتعلّم في قالب يتوافق ونموّه العقلي والتّفنسي، لتكون منافذ بيداغوجية لولوج التّاريخ الوطنيّ وتسجيل بطولاته، حتّى يستقي منها المتعلّم "النّموذج" في حبّ الوطن والاستماتة في الدّفاع عنه.

ومّا أثار اهتمامنا بما يتوافق وموضوع "الذاكرة وترسيخ قيم الهوية الوطنية"، نصّ قرائيّ للمجاهدة والأدبية الجزائرية "زهور ونيسي"، المتضمّن بكتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم المتوسط، وهو مقطع من روايتها "كاليدونيا التّفي بلا رجعة"، وقد اهتمّت به الدّراسة للوقوف على ما يكتنزه من حمولة تاريخية وقيم وطنية موجّهة لفئة من متعلّمين.

2. الثورة الجزائرية والهوية الوطنية:

1.2 تعريف الثورة (Revolution):

لم يرد لفظ "الثورة" في المعاجم العربية بالمعنى السياسيّ المعاصر، حيث جاء في "الصّحاح" قوله: "ثار الغبار يثور ثوراً - ثوراناً - أي سطع، [...] انتظر حتّى تسكن هذه الثّورة، وهي الهيج، وثور فلان عليهم الشّرّ أي: هيجه وأظهره [...] والثور الذّكر من البقر، والأنثى ثورة".¹ ووردت في "المنجد في اللغة" لـ "لويس معلوف" بمعنى الهيجان والغضب قوله في مادة (ثار): "ثار ثوراً وثوراناً وثُوراً: هاج [...] الثّورة: الهيجان،"² وجاء في المعجم الوسيط بأنّها: "تغيير أساسيّ في الأوضاع السياسية والاجتماعية، يقوم به الشعب في دولة ما".³

والثّورة مفهوم يعني في استعماله الواسع: "قيام شعب بحركة سياسية أو عسكرية أو هما معاً، من أجل تغيير وضع رهن سيّء، وإبداله بوضع جديد أفضل منه".⁴ كما تعرف الثّورة أيضاً بأنّها: "تغيير جوهري في الأوضاع السياسية والاجتماعية لدولة معيّنة، لا تتبع في أحداثه الوسائل المقرّرة لذلك في النظام الدّستوري لتلك الدولة".⁵

ومّا سبق سوقه؛ يمكننا القول بأنّ الثورة هي مفهوم يرد به: حالة الغضب والهيجان التي تتملّك شعباً معيّناً نتيجة أوضاع سياسية واجتماعية ممارسة عليه بسبب سلطة أجنبية تنتهك نظامه، وتعتدي على خصوصياته؛ الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ممّا يستدعي اللجوء إلى وسائل يستعيد بها ما تمّ انتهاكه أو سلبه. والثورة الجزائرية من الناحية الإنسانية؛ مأساة (تراجيديا) بكلّ ما تحمله الكلمة من أبعاد ومضامين، "وهي أكبر مأساة للشعوب في القرن العشرين بعد المأساة الفلسطينية"⁶، وهي من الناحية السياسية؛ من أعظم الثورات التي شهدتها القرن العشرين، يتردّد صداها ويرتبط ذكرها بكلّ فكر أو نزعة تحرّرية، إنّها نموذج للانعتاق والحرية والتضحية والفداء، التفتّ حولها الكبار والصغار الرجال والنساء، فضربت أروع النماذج في البطولة والتضحية وحبّ الحرية والانعتاق.

2.2 تعريف الهوية (Identity):

يعبر لفظ (الهوية) عن ماهية الشيء وأصله، فقد ورد في "اللسان" قوله: "قال ابن الأعرابي: هُويّة أراد أهويّة، فلما سقطت الهمزة رُدّت الضمة إلى الهاء ... وفي الحديث إذا عرستم فاجتنبوا هُويّ الأرض، وهي جمع هُوة وهي الحفرة والمطمئن من الأرض."⁷ وهي بهذا المفهوم ما يُشعر بالاطمئنان والأمن والحماية، فهو يخصك دون غيرك. و(الهوية) لفظ يحمل أيضا دلالة فلسفية، تدلّ على أصل الشيء المطلق، سواء كان إنسانا أو غيره، وقد وردت في "التعريفات" قوله: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق، اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق."⁸ وفي المعجم الوسيط: "الهوية (في الفلسفة): حقيقة الشيء أو الشخص التي تميّزه عن غيره."⁹ أمّا في معجم "المنجد في اللغة والأدب والعلوم" وردت "الهوية" مقترنة بالضمير (هو)، قوله: "هو ضمير للغائب المفرد المذكّر، ويقال للمثنى هما، وجمع المذكر هم، ويقال للمؤنث المفرد هي وللمثنى هما وللجمع هنّ [...] الهوية: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية، وذلك منسوب إلى (هو). والهُو هو لفظ مركب من هُو هُو، جُعل اسما معرفّا باللام، ومعناه الاتحاد بالذات."¹⁰

ومهما أخذ اللفظ من معنى وجوديّ أو فلسفي فهو يدلّ على جوهر الشيء أو الشخص وخصائصه، التي تميّزه عن غيره، فلا هوية لإنسان دون صفات تفرده عمّا سواه، سواء كانت مادية أو معنوية.

وعند تتبّع معاني اللفظ في الأدبيات المعاصرة نجد أن كلمة الهوية تُستعمل لأداء معنى كلمة Identity- Identité في اللغتين الإنجليزية والفرنسية والتي تعبر عن معنى المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه أو مطابقته لمثيله ولذلك فإننا إذا اعتمدنا المفهوم اللغوي لكلمة الهوية أو اعتمدنا على استعمالاتها في معاجم العلوم الإنسانية المختلفة فإن المعنى العام للهوية لا يتغير..¹¹

إنّما الجزء الأصيل من كينونة الشيء ووجوده مهما كان، "ولما كان في كلّ شيء من الأشياء -إنسانا أو ثقافة أو حضارة- الثوابت والمتغيّرات"، فإنّ هوية الشيء هي ثوابته، التي تتجدّد ولا تتغيّر.. تتجلّى وتفصح عن ذاتها دون أن تُخلي مكانها لنقيضتها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة.. إنّها كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميز

بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الشمس والحجب، دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات.¹²

إن مفهوم الهوية في الدراسات المعاصرة قد شغلت تخصصات عديدة على اعتبارها مفهوما فرديا واجتماعيا على حدّ سواء، كونها أساس التفاعلات بين الأفراد والمجتمعات، فالفرد يحمل هويته التي تميّزه عن غيره؛ اسمه ولقبه وكلّ ما يمنحه الخصوصية لذاته، إنّها هوية وطنية أو تمييزية، أمّا ما يتشابه ويتشارك به غيره من أفراد مجتمعه فتمنحهم جميعا تعريفا كلّيا يميّزهم عن غيرهم من المجتمعات، فهي هوية توحيدية وتسمى هوية تشابه وتطابق، تسمح للأفراد بإيجاد سبل التواصل واستمرار تجاربهم عبر الزمان والمكان. إنّها رابطة تفاعلية بين الأنا والغير، تعبّر عن مميزات جسمية ونفسية واجتماعية وثقافية، تمكن الفرد من معرفة ذاته ومعرفة الآخر، كما تعزّز شعوره بكيونته ووظيفته ضمن الجماعة التي ينتمي إليها.

وبالنظر إلى مفهوم الهوية الذي يرتبط بصورة الفرد وانتمائه للجماعة، والتي تظهر في السمات الخاصة والعامة ضمن التفاعل الذي يركز على "الثابت" و"المتغير"، فإنّ معرفة الهوية والتعبير عنها من طرف الأفراد أو الجماعات يكون ضمن:

أ- المكوّن الاجتماعي: فالفرد لا يمكنه الانفراد بهويته الشخصية بعيدا عن المجتمع، "فهو مؤشر انتماء الإنسان إلى وطن ومجتمع ودولة، وهي وسيلة تمايز يدرك من خلالها بأنه كفرد يختلف عن الآخرين من حيث الاسم والجنس والتركيب الجيني، وإحساسه بذاته، وبذلك أيضا يميّزه الآخرون عن بقية أفراد المجتمع".¹³ وهذا الانتماء نجد له جذورا في العلوم التجريبية التي تحدّد الأعراق والأجناس بحسب الخصائص البيولوجية للأفراد: كالدم الذي يميّز أفراد الأسرة الواحدة أو العائلة، ولون البشرة التي يختلف فيها مجتمع عن آخر؛ كالجنس الآسيوي، والأوروبي، والإفريقي.. وغيرها من المجتمعات البشرية. والمكوّن الاجتماعي للهوية ينشأ أساسا من الانتماء العائلي ليتوسّع إلى الانتماء الوطني ثمّ الانساني. والثقافة بمكوناتها المادية والمعنوية، مهما تعدّدت منابعها، تجمع أفراد المجتمع الواحد وتقرب رؤاهم وتوحد نظرتهم تجاه ما يحيط بهم من متغيرات، ليتمكّنوا من رصد الواقع ورسم الطموحات.

ب- المكوّن الثقافي: وتعبّر عنه القيم الاجتماعية المشتركة بين الأفراد، وهو مخزون عاطفي انفعالي ينضوي على: الدين واللغة والعادات والتقاليد، ونظام الحياة، وكلّ ما تعبّر به الجماعة عن وحدة الماضي والمصير المشترك، والحالة الإبداعية والجمالية، إنّّه "ذلك الكلّ المركّب الذي يتألف من كلّ ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملّكه كأعضاء في المجتمع".¹⁴ وهو بهذا المفهوم ذو وجهين؛ الأول ذو طبيعة عقلية يعبّر على مجموعة من القيم والمعتقدات والمعايير والرموز والإيديولوجيات، والثاني يرتبط بنمط الحياة الكلّي لمجتمع ما، والعلاقات التي تربط بين أفرادها، وتوجّهات هؤلاء الأفراد في حياتهم، بما يكفل لهم الاستمرار باستمرار نمط الثقافة السائد بينهم.

ج- المكوّن السياسي: تنتظم العلاقات الاجتماعية وفق دستور وقوانين موجّهة للبناء السياسي وكيان الجماعة البشرية، بمشاركة القوى السياسية والمدنية، التي تشكّل لحمة ووحدة الأفراد ضمن "الدولة". والانسان يكتسب هويته بانتمائه لحدود جغرافية يفتخر بها ويدافع عنها عند الشدائد التي تعترضها، والانتماء السياسي للفرد هو

ذلك "الشعور الذاتيّ بأنّه يشترك مع أبناء هذه الأُمّة في مكوّناتها وأهدافها ومصالحها، وفي المقابل فإنّه إذا لم يشعر الفرد بهويته لسبب أو آخر، يتولّد لديه ما يمكن أن نطلق عليه أزمة هوية".¹⁵

ومما تقدّم يتبيّن أنّ الهوية ذات طبيعة فردية وأخرى جماعية، تعبّر عن قدر معيّن من الثوابت والخصائص المشتركة، والصفات التي تميّز فردا عن غيره أو أُمّة عن أخرى، وهي ترتكز على ثلاث مكوّنات تلتحم في صورة "هوية" تأخذ معناها في وجود الفرد والجماعة، حيث يسعى إلى إثبات اختلافه عنها وتطابقه معها في آن واحد، وفي محاولاته تلك يسعى إلى إثبات هويته من خلال مقارنة خصائصه مع غيره في المجتمع، ومقارنة مجتمعه مع مجتمعات أخرى.

3.2 القيم والهوية الوطنية في المناهج التعليمية:

إنّ تزويد المتعلّمين بالقيم المرغوب تمثّلها لديهم هي إحدى غايات المناهج التعليميّة، هذه الغاية تتحملها كتب اللغة العربيّة دون سواها، فهي تحمل رسالة تربوية لتنشئة الأجيال على القيم الفاضلة والخصال النبيلة، ممّا يتوجّب على القائمين عليه الحرص على انتقاء النصوص التي تدعم الجانب القيمي للتلاميذ، بما يتماشى والقيم التي حدّدها المنهاج؛ قيم الهوية الوطنية، القيم الاجتماعية، القيم الإنسانية.

والقيمة (Value) حسب المعجم الفلسفي "تطلق على كلّ ما هو جدير باهتمام المرء وعنايته، لاعتبارات اقتصادية، أو سيكولوجية، أو اجتماعية، أو أخلاقية، أو جمالية"¹⁶، إنّها تعني مجموع المبادئ والاتجاهات والصفات الإيجابية المراد غرسها في نفوس الناشئة، ضمن بيئة تعليمية، بطريقة منظّمة تكفل لهم تحديد مواقفهم اتجاه بيئتهم وممن يحيطون بهم.

وعليه، فإنّ مناهج "الجيل الثاني" قد شهدت تغييرا في بناء محتوى الكتب الدراسيّة، وأصبح ترسيخ القيم والهوية الوطنية في المناهج التعليميّة، مرتكزا بيداغوجيا وهدفا من أهداف المدرسة الجزائريّة، ولا تنفك تسعى إلى تجسيده، وذلك بتضمين المحتويات تلك القيم وتنشئة التلاميذ عليها، وترسيخها في نفوسهم لتكون لهم مرتكزات في بلورة الشخصية الجزائريّة.

وسوقا على ما تقدّم، فإنّ المناهج التعليميّة تهدف إلى تكوين المتعلّم ومساعدته على اكتساب قيم المواطنة والانتماء والوحدة، وهي من المهام الأساسيّة للمدرسة الجزائريّة، حيث ورد في القانون التوجيهي رقم 08-04 المؤرّخ في 23 جانفي 2008م، تحديد غاياتها الأساسيّة، والتأكيد على تربية الناشئة على حبّ الوطن والانتماء إليه والدفاع عنه، من خلال:

- ترسيخ الشخصية الجزائريّة وترسيخ وحدة الأُمّة، من خلال توعية التلميذ بانتمائه إلى هوية تاريخية جماعية مشتركة ووحيدة، والتي تكرّسها رسميا الجنسية الجزائريّة، وتجذير الشعور الوطني لديه، وتنمية التعلّق بالجزائر والوفاء لها، وبالوحدة الوطنية وسلامة أراضيها.

- التكوين على المواطنة من خلال ثقافة الديمقراطية (أفضل ضامن للانسجام الاجتماعي والوحدة الوطنية)، بصفة تساعد على الفهم الأفضل والتقدير الأكبر لأهمية المساهمة الفعالة في الحياة العامة.

والمناهج التربوي الجزائري، يسعى إلى تحقيق وإدماج جملة من القيم المتعلقة بالاختيارات الوطنية، ومنها:¹⁷

أ- القيم الوطنية: وتتمثل في تنمية معنى القانون واحترامه، واحترام الغير والقدرة على الاستماع للآخر، واحترام سلطة الأغلبية، واحترام حقوق الأقليات.

وإذا كانت اللغة من مقومات الهوية ووجه من وجوه ثقافة المجتمع، فإنّ المنهاج يسعى إلى تمكين المتعلم من التحكم في اللغة الوطنية، وتثمين الإرث الثقافي والحضاري للأمة الجزائرية.

ب- القيم الاجتماعية: تنمية معنى العدالة الاجتماعية، والتضامن والتعاون، بتنمية روح الالتزام والمبادرة.

ج- القيم الاقتصادية: تنمية حبّ العمل المنتج والمكّون للثروة، والسعي إلى ترقّيته والاستثمار فيه بالتكوين والتدريب والتأهيل.

د- القيم العالمية: تنمية الفكر العلمي، والتحكّم في وسائل العصرية، والاستعداد لحماية حقوق الانسان والدّفاع عنها، والتفتّح على الثقافات والحضارات العالمية.

إنّ بناء المحتوى التعليمي لمادّة اللغة العربية في مرحلة التعليم المتوسط، يأخذ في الحسبان تزويد المتعلمين بالقيم المتنوعة، وترسيخها في نفوسهم في مختلف مراحل تعلمهم، ليشبّوا على حبّ الوطن والاعتزاز بالانتماء إليه.

3. دور كتب اللغة العربية للطور المتوسط في تعزيز الذاكرة الوطنية:

1.3 التعليم المتوسط:

مرحلة هامة من مراحل التعليم الإلزامي، وله غاياته الخاصة، ويهدف إلى جعل المتعلم يتحكّم في قاعدة من الكفاءات التربوية والثقافية والتأهيلية التي تمكّنه من مواصلة الدراسة والتكوين بعد التعليم الإلزامي، وتجزّأ سنوات التعليم المتوسط الأربع إلى ثلاثة أطوار تتميّز بأهداف محدّدة، وهي:

- الطور الأول: أو طور التجانس والتّكيف، ويمثّل السنة الأولى، سنة ترسيخ المكتسبات والتجانس والتّكيف مع تعليم يتميّز باعتماده على المادة المستقلّة أكثر، وإدراج اللغة الأجنبية الثانية (الإنجليزية).

- الطور الثاني: أو طور الدعم والتعميق، ويمثّل السنتين الثانية والثالثة، ويخصّص لدعم الكفاءات ورفع المستوى الثقافي والعلمي والتكنولوجي للمتعلم.

- الطور الثالث: أو طور التعميق والتوجيه، ويمثّل السنة الرابعة، حيث - بالإضافة إلى تعميق وتنمية التعلّيمات في مختلف المواد - يتم فيها تحضير توجيه التلاميذ نحو شعب التعليم ما بعد الإلزامي أو الحياة العملية، وذلك بالعناية والمتابعة البيداغوجية وبنشاطات يغلب عليها العمل التطبيقي. ويتوّج التعليم الإلزامي بشهادة التعليم

المتوسط.¹⁸

2.3 اللغة العربية

مادة دراسية تفتح آفاق المعرفة وتحصيلها في باقي المواد، وهي وسيلة وغاية في آن واحد، لذلك يسعى المختصون في إعداد المناهج التعليمية إلى "تحسين تعليم اللغة العربية قصد إعطائها دورها البيداغوجي والاجتماعي والثقافي الكامل، لسد حاجات تعليم ذي نوعية، قادر على التعبير عن عالمنا؛ الجزائري، العربي، الإفريقي، المتوسطي، والعالمي، ثم امتصاص النجاحات العلمية والتكنولوجية والفنية عبر العالم ونقلها. وستتمكن الممارسة الرشيدة للغة العربية من التكفل بمحتويات اللغات الأخرى من خلال التحويل المعرفي الذي يساعد على التنمية الشاملة للتعلّم، ويساهم بذلك في تعزيز الشعور بالانتماء لأمة واحدة".¹⁹

وكتب اللغة العربية التي انبثقت عن إصلاحات "الجيل الثاني"، تعتمد في تقسيم التعلّمات على نظام تعليمي تعلّمي يعتمد على "المقاطع" و"الميادين" لتسهيل انتقال المعارف والتحكّم في الكفاءات العرضية لبلوغ الكفاءات الشاملة للميادين (الأنشطة) ضمن مخطط دراسي عام لمشروع تربوي، يسعى إلى تحقيق كفاءات شاملة لمرحلة التعليم المتوسط.

والمقطع التعليمي عبارة عن: "مجموعة مرتّبة ومتراصة من الأنشطة والمهام، يتميز بوجود علاقات تربط بين مختلف أجزائه المتتابعة في تدرّج لولي، يضمن الرجوع إلى التعلّمات القبلية لتشخيصها وتثبيتها، من أجل إرساء موارد جديدة لدى المتعلّمين، قصد المساهمة في إنماء الكفاءة الشاملة".²⁰ ومن مجموع مقاطع كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم المتوسط؛ نجد مقطع "الهجرة الداخلية والخارجية"، وفيه التفاتة واضحة لأهمّ مشكلات الشباب الجزائري (الحرق)، لكنّ القائمين على إعداد الكتاب يولون القضية اهتماما وذلك بالتذكير بأهمية الوطن (الجزائر) والتضحيات التي قدّمها السلف، وربط قضية "الهجرة" بالسياسة الاستعمارية في الجزائر، وذلك بإدراج مفهوم مختلف للهجرة التي تشيع بين أوساط الشباب، بلفت انتباههم وتذكيرهم بسياسة التهجير (الهجرة القسرية) التي انتهجتها فرنسا مع الجزائريين في مواجهة الثورات الشعبية التي شهدتها العديد من المناطق.

4. الهوية والذاكرة الوطنية في نصّ "مهجّرون ولا عودة" لزهور ونيسي: (دراسة تطبيقية):

1.4 زهور ونيسي:

أديبة جزائرية معاصرة، من مواليد 13 ديسمبر 1936م بقسنطينة، لم تكمل ونيسي تعليمها بسبب الاستعمار، الذي كان يمنع الجزائريين من مواصلة التعليم إلى مستويات عليا، وفي العام 1954 انضمت إلى ثورة التحرير وهي في سن الشباب، حاصلة على إجازات في الأدب والفلسفة، كما درست علم الاجتماع والإعلام، تقلّدت عديد المناصب السياسية بعد الاستقلال، ومنها منصب وزيرة لتكون الأولى في تاريخ الجزائر، لها العديد من الأعمال الأدبية في الرواية والمسرح والمقالة، ومنها: الرصيف الناعم (1967)، من يوميات مدرّسة حرّة (1979)، الظلال الممتدة (1985)، لونجة والغول (1993)، وكاليدونيا النفي بلا رجعة (2018).

2.4 كاليديونيا أو النفي بلا رجعة:

مؤلف صادر عن منشورات ألفا بالجزائر (2018)، حيث طبع هذا الكتاب بدعم من الديوان الوطني لحقوق المؤلف والحقوق المجاورة "أوندا"، رصدت من خلالها المجاهدة والأديبة "زهور ونيسي" مرحلة تاريخية من نضال الشعب الجزائري وهي "النفي بلا رجعة إلى كاليديونيا الجديدة" (Forced displacement) في منتصف القرن 19م، وتقع كاليديونيا جنوب غرب المحيط الهادي على بعد 1210 كلم (750 ميلا) إلى شرق أستراليا، وهي تنتمي لجزر (السالمون)، اكتشفها جيمس كوك (J.COOK) عام 1774م. صوّرت الأديبة "ونيسي" من خلالها المقاومين والمجاهدين الجزائريين ومعاناتهم من النفي والغربة والحنين إلى الوطن، حين ترجمت فيها صورة الظلم والاضطهاد الذي مارسه المستعمر الفرنسي ضد الجزائريين الذين تم نفيهم إلى كاليديونيا الجديدة.

والنص الأدبي "مهجّرون ولا عودة"²¹؛ نصّ قرائّي (مقتطف) مأخوذ من الرواية، وهو يتموضع على كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة من التعليم المتوسط (الجيل الثاني) بين الصفحة (150-151)، ضمن المقطع التعليمي الثامن (الهجرة الداخلية والخارجية)، وهو عبارة عن مقتطف قصصي من الكتاب، تنقل من خلاله الأديبة صورة دقيقة لمشهد النفي، الذي يحمل من مرارة الألم والظلم الكبيرين، ويبرز ذلك من خلال:

أ-العنوان: (مهجّرون ولا عودة)، وهو عبارة عن مركّبين لغويّين لهما من الحمولة الدلالية ما يترجم محتوى النص وهما: (مهجّرون) و (ولا عودة)؛ فكلمة (مهجّرون) صيغة صرفية لاسم المفعول للفعل المزيد (هجّر) واللفظ يحمل معنى الإخراج بالقوة من المكان أو (البلد)، وذلك في قوله: "هجّر، يهجّر، تهجيرًا، فهو مُهجّر، والمفعول مُهجّر -للمتعدّي [...] هجّر فلانًا: أخرجه من بلده."²² إنّها الهجرة القسرية التي يُبعد من خلالها الأفراد عن بلادهم بالقوة، كما تلفتنا صيغة الجمع (جمع المذكر السالم) التي وردت عليها اللفظ؛ فالمهجّرون مجموعة كبيرة (الكثرة) من الرجال (الجنس)، نُقلوا من أرضهم بغرض إضعاف قوّة ثورتها. أمّا (ولا عودة): فتفسّر طبيعة التهجير، فهو ليس انتقالًا مؤقتًا من مكان إلى آخر، بل انتقال أبديّ، بهدف قطع العلاقة المتأصلة بين الجزائريّ وأرضه وأهله، وهي توحى بالخوف ممّا ينتظر المهجّرين (المجهول)، كما تحمل بين ثناياها فكرة (النفي)، والمنفى هو "اسم مكان من نفى: مكان إقامة المطرود من بلاده، مكانُ النّفي"²³ إنّّه المكان الذي يذهب إليه شخصٌ ما، بعد إجباره على الخروج من وطنه، ويظلّ فيه فترة زمنية طويلة، وقد تستمر إلى مدى الحياة.

لقد حمل العنوان سياسة استعمارية مارستها فرنسا ضدّ الجزائريين الوطنيين الذين ثاروا ضدّ الوجود الفرنسيّ على أرضهم، فكانت إحدى الحلول لإضعافهم ولفكّ أواصر علاقتهم بالأرض التي يدافعون عنها بإبعادهم إلى أقاصي الدّنيا (الثلث الخالي) دون أمل في العودة إلى التراب الذي ترعرعوا فيه وكبروا على فطرة حبّه والتّمسكّ به.

ب-التوثيق التاريخي: عمدت المؤلّفة المجاهدة (زهور ونيسي) في نصّ (مهجّرون ولا عودة) إلى توثيق أحداث تاريخية شاهدة على جرائم الاستعمار (النفي)، حيث يصل المهجّرون الجزائريون اليابسة بعدما فارقوها منذ مدّة

ليست بالقليلة "ستّة أشهر من الإبحار المجهول الهدف" وهم يصيحون: "الأرض... الأرض... الأرض"، إنّها كلمة تختزل بها الكاتبة الحنين إلى اليابسة، كما تحمل بين ثناياها الفطرة الإنسانية التي يترجمها تعلّقهم بالوطن الذي أرغموا على تركه، وفي غمرة الفرح باليابسة، ينقطع أملهم بالعودة ويتأكّد لهم اليأس بوصولهم إلى أرض أخرى جديدة وبعيدة.

وتتجلى في النص صورة السّجناء (المهجّرون) الذين يبلغ عددهم (400) أربع مائة رجل، وقد "كانوا مربوطين في أيدي بعضهم البعض كأثّم خراف تُساق إلى الدّبح". "إنّه مشهد لا إنسانيّ يصوّر "الضحية" التي لا حول لها ولا قوّة، تُجرّ إلى مصير محتوم عليها، بينما تظهر صورة معاكسة لـ "الحزاس من العسكر الفرنسيّ غلاظ شدادّ يدفعونهم دفعا للنزول (من الباخرة)".

إنّ مشهد الهجرة القسرية (التّفي) الذي ورد في النصّ، يختزل للمتعلم صورة الهجرة التي يراها الشباب اليوم (الحرقّة)، صورة الهجرة المؤلمة التي أرغموا عليها، فبرغم الظروف التي واجهها الجزائريون تحت وطأة الاستعمار لم يفكّروا في الابتعاد عن أرضهم، بل كانوا يفضلون البقاء فإما نصر على الأعداء أو اللّحاق بركب الشّهداء، إنّها العقيدة الرّاسخة في نفس كلّ جزائريّ حرّ؛ يواجه كلّ السياسات الاستعمارية، ويرفض كلّ الإغراءات التي تشنيه عن هدفه الأسمى في استرجاع الأرض والعرض المسلوبين.

ج- القيم الوطنية والدينية لنص مهجّرون ولا عودة:

على اعتبار متعلّم اليوم هو رجل الغد، فإنّ مسألة إعدادة وتكوين شخصيته لا بُدّ أن تتوافر لها "القدوة" مرجعية وإلهام له، لذلك تعكف النصوص الأدبية على تضمين محتوياتها عديد القيم التي يُراد تمثّلها في نفوس الناشئة في المستقبل، لتسهم في غرس روح الوطنية وتمجيد بطولات أسلافهم والاقتداء بهم. والنّص الأدبيّ (مهجّرون ولا عودة)، يزرع بمجموعة من القيم ذات الصلة بالذاكرة والهويّة الوطنية؛ إذ يذكّر المتعلّم بتاريخ النّضال الطويل الذي خاضه الشعب الجزائريّ من أجل استرجاع أرضه، وفي ذلك إثارة لمشاعر الوطنية لدى المتعلّم، حين يحسّ مرارة فراق أرضه التي سيحملها في قلبه إلى أرض بعيدة، وفي ذلك لفت لمشاعر المهجّرين المفعمّة بالألم والحرقّة التي لا تُحْمِدها غير العودة إليها مرّة أخرى.

إنّ تهجير الجزائريين إلى "الأرض الجديدة" توثيق تاريخيّ للسياسة الاستعمارية، يمكّن المتعلّم من ربط خبراته التّاريخية بالنّصّ الأدبيّ، الذي يسهم في تعزيز معارفه واستثمارها في وضعيات تعليمية ذات دلالة؛ بإكسابه كفاءات عرضية (أحداث تاريخية) إلى جانب الكفاءة الشاملة لمادّة اللغة العربية (القراءة السليمة)، وفي ذلك تعزيز للذاكرة الوطنية في نفوس النّشء الجديد بأسلوب قصصيّ يعتمد سرد الوقائع التّاريخية بكلّ تفاصيلها، وتصوير الفاعلين فيها، بأبعادهم النفسية والجسدية، والذي يعدّ الأنسب لهذه المرحلة العمرية، التي تحتاج لصقل الشخصية على التّواكب الوطنية.

كما تظهر في النص القيم الدينية للمجتمع الجزائري، فرغم الظروف التي يمرّ بها المجتمع، مازال يتمسك بأرضه ويحملها في قلبه ويدافع عنها بلا هوادة، ويتحمل في سبيل ذلك كلّ صنوف التعذيب (الجسديّ والنّفسيّ)، ليضرب مثالا في التضحية والفداء، وعنوانا للصبر الذي لا تثنيه أعتى القوى الاستعمارية.

إنّ أسماء الشخصيات التي وردت في نصّ (مهجرون ولا عودة)؛ "أحمد" وابنه "علي" أسماء أصيلة ذات علاقة بالعقيدة الإسلامية للشعب الجزائري، الذي لم يستسلم لكلّ سياسات "الإدماج" بل يشمخ بكلّ عزّة ليواجهها؛ وتبرزها الأدبية بقولها: "...لكنّه حين نزل الأرض صلب طوله فبدا كأنّه فارس أو أمير أو قائد... ممشوق القوام رافعا رأسه للسماء [...] ثمّ يتنفس عميقا وكأنّه يطمئنّ لوجود الله". إنّها الشخصية الثابتة على الإيمان، والتي تحمل اليقين بالله والمتسلّحة بالصبر في مواجهة المحن مهما كانت وطأتها على النّفس.

5. خاتمة:

النصوص القرائية الموجهة لتلاميذ السنة الرابعة من التعليم المتوسط؛ مساهمة تربوية وبيداغوجية ومنهجية، لنقل الذاكرة الوطنية إلى فئة تُعقد عليها الآمال في بناء أمة مشدودة الوصال بين الأمس والغد، بين السلف والخلف، لتستمرّ رسالة الأجيال في التضحية على اختلاف الزّمان ووحدة المكان.

وبعد استيفاء مباحث الدّراسة، توصلنا إلى مجموعة من النتائج نذكر أهمّها في النقاط التالية:

- الثورة الجزائرية نموذج التحرّر للشعوب المستضعفة وعنوان هويّتنا التاريخية.
- الهوية الوطنية رابطة جماعية ذات مكوّنات اجتماعية وسياسية وثقافية يتفاعل من خلالها أفراد المجتمع الجزائريّ.
- المناهج التعليمية قنوات بيداغوجية تمكّن من صناعة الفرد الوطنيّ وبلورة الرّوح الوطنية لدى المتعلّمين.
- محتوى النّصوص الأدبية لمنهاج اللغة العربية للسنة الرابعة متوسط يبرز صورة مشرقة عن التمسك بالوطن والدّفاع عنه.
- نصّ (مهجرون ولا عودة) لـ "زهور ونيسي" توثيق للسياسة الاستعمارية في الجزائر (التهجير القسري) بأسلوب قصصي يعتمد سرد الوقائع التاريخية.
- يحتوي نصّ (مهجرون ولا عودة) لـ "زهور ونيسي" على مجموعة من القيم الوطنية والدينية التي توجّه سلوك المتعلّم إلى حبّ الوطن والتمسك به.
- نصّ (مهجرون ولا عودة) لـ "زهور ونيسي" يعزّز الذاكرة التاريخية للمتعلّم ويُسهم في إكسابه الكفاءات العرضية المناسبة لإنماء شخصيته.

6. الهوامش:

- ¹ الجوهري إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، (د ط)، دار الحديث، القاهرة: 2009، ص 38.
- ² معلوف لويس، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، (د ط)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت: (د ت)، ص 75.
- ³ أنيس إبراهيم، المعجم الوسيط، (ط 4) مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة: 2008، ص 102.

- ⁴ مرتاض عبد المالك، دليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية 1954-1962، منشورات المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر: (د ت)، ص 24.
- ⁵ المرجع نفسه، ص 24.
- ⁶ العسلي بسام، المجاهدون الجزائريون (د ط)، دار النفائس، بيروت: 1986، ص 9.
- ⁷ ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد 15، (د ط)، دار صادر، بيروت: (د ت)، ص 376.
- ⁸ الجرجاني الشريف، التعريفات. تح: محمد المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير (د ط)، القاهرة: 2010، ص 216.
- ⁹ أنيس إبراهيم، المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص 998.
- ¹⁰ معلوف لويس، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، مرجع سابق، ص 875.
- ¹¹ العاني خليل نوري، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة، (ط 1)، ديوان الوقف السني، بغداد، 2009، ص 44.
- ¹² عمارة محمد، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، سلسلة التنوير الإسلامي، (ط 1)، عدد 32، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر: 1999، ص 6.
- ¹³ بدوي بطرس فؤاد، (2008)، الهوية وثقافة السلام محاولة للوصول إلى الذات، طبعة إلكترونية، https://www.kobayat.org/data/books/fouad_boutros/fouad-badwi-boutros.pdf ، ص 20.
- ¹⁴ مجموعة من المؤلفين. نظرية الثقافة، تر: علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت: 1979، ص 9.
- ¹⁵ العواد خالد، إدماج مفاهيم العروبة والبعد العربي في مناهج التعليم العام. مؤتمر وزراء التربية والتعليم العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، البحرين: 2019، ص 17.
- ¹⁶ صليبا جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، المجلد 2، بيروت، لبنان: 1982، ص 212.
- ¹⁷ وزارة التربية الوطنية، مناهج السنة الثانية من التعليم المتوسط، اللجنة الوطنية للمناهج، الجزائر: 2003، ص 6.
- ¹⁸ وزارة التربية الوطنية، المرجعية العامة للمناهج، وزارة التربية الوطنية، الجزائر: 2009، ص 36.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص 52.
- ²⁰ الجعافرة عبد السلام، مناهج اللغة العربية وطرائق تدريسها بين النظرية والتطبيق، (ط 1)، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن: 2011، ص 42.
- ²¹ شلوف حسين، اللغة العربية السنة الرابعة من التعليم المتوسط، (د ط)، منشورات الشهاب، الجزائر: 2019، ص 150، 151.
- ²² معجم المعاني الجامع، (النسخة الإلكترونية)، مادة (هجر)، <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar> ، اطلع عليه بتاريخ: 27/08/2024، سا: 9:26.
- ²³ معجم المعاني الجامع، (النسخة الإلكترونية)، مادة (نفى)، <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar> ، اطلع عليه بتاريخ: 27/08/2024، سا: 9:58.

7. قائمة المراجع:

1. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د ت).
2. أنيس إبراهيم، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، (مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2008).
3. بدوي بطرس، الهوية وثقافة السلام محاولة للوصول إلى الذات، (طبعة إلكترونية، 2008).
4. الجرجاني الشريف، التعريفات. تح: محمد المنشاوي. (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، 2010).
5. الجعافرة عبد السلام، منهاج اللغة العربية وطرائق تدريسها بين النظرية والتطبيق، (الأردن: مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2011).
6. الجوهري إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، (القاهرة: دار الحديث، 2009).
7. شلوف حسين، اللغة العربية السنة الرابعة من التعليم متوسط، (الجزائر: منشورات الشهاب، 2019).
8. صليبا جميل، 1982، المعجم الفلسفي، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1982).
9. العاني خليل نوري، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، (بغداد: ديوان الوقف السني، 2009).
10. العسلي بسام، المجاهدون الجزائريون، (بيروت: دار النفائس، 1986).
11. عمارة محمد، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية. (مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999).
12. العواد خالد، إدماج مفاهيم العروبة والبعد العربي في منهاج التعليم العام، (البحرين: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 2019).
13. مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، تر: علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، 1997، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
14. مرتاض عبد المالك مرتاض، دليل مصطلحات ثورة التحرير الجزائرية 1954-1962، (الجزائر: المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، د ت).
15. معجم المعاني الجامع، (النسخة الإلكترونية)، مادة (هجر)،
<https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar>، اطلع عليه بتاريخ: 2024 /08 /27، سا: 9:26.
16. معلوف لويس، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، د ت).
17. وزارة التربية الوطنية، المرجعية العامة للمناهج، (الجزائر: اللجنة الوطنية للمناهج، 2009).
18. وزارة التربية الوطنية، منهاج السنة الثانية من التعليم المتوسط، (الجزائر: مديرية التعليم الأساسي، 2003).